

بين أفق الزمير النجيم

مقدمة

في هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام .
وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثاً ضخماً في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأي وحده جحفاً لجباً . فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام .

فإلى الجيل الذي يتلفت بمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح .

إن أبصارنا في أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضي معاً ، لأن الماضي مركز الثقل الذي يحفظ توازننا ، فلا نقبل على المجهول إلا وفق أيدينا قدر كاف من المعلوم . ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرها وإرتويتنا . وإذا كنا إلى اليوم لم نعرف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات ، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذا كرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحي .

لنقل للمتوردين مقالة البحارة في سفينة بالحيط الأطلسي للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا في طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائماً : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » ، حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذباً فراثاً لذة للشاربين ، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماء العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزرع الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أوفى كسيف الإسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الإسلام من ردة المرتدين فكانت يده في حروب الردة أنلى وأجدى من كل غزوة غزاها .

إذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقفه الستين التي أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر في عهده ، فكيف بأبي حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين في الإسلام ، والإمام الأعظم للأئمة والمشتريين . في كل نبضة من نبضات قلبه هداية . بالعلم وبالقدوة ، إلى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جلت للناس عمله في بناية الحضارة الإسلامية وحياتها بما أشاعه في كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير في الحياة الدنيا إذا أزيئت لهم بمصباح الفقيه .

ولا تعارض الفكر والسلطان . أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هي العليا .

ألا إن لنا في الإمام الأعظم قدوة حقة ، وتأسياً في التضحيات ، ونحن في مفرق الطرق . فلنقتد بهداه . ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو سمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن إفلاسها في الحريين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح .

لتمثل بأبطال حضارتنا ، ونتمسك بأسباب نهضتنا .

لقد اعتر الإسلام بأسبابه ، عندما استمسك أبنائه بأدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والعودة عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارئ هذا المثل للرجل العظيم الذي أجرينا ذكره على الصفحات التالية .